"بيزنطة ومسألة الإتحاد الديني بين الكنائس علي عهد الإمبراطور حنا الخامس باليولوجوس (١٣٥٤-١٣٩١م)"

إعـــداد

د/ عماد أحمد حامد

باحث دكتوراه / تاريخ

مقدمة:

كما هو معلوم أن الحملة الصليبية الرابعة كانت قد حولت مسارها عن مصر إلي القسطنطينية ونجح الصليبيين في الإستيلاء عليها في ٢١ أبريل عام ١٢٠٤م ، وأقاموا علي أنقاضها مجموعة من الإمارات اللاتينية الإقطاعية، وقد قدر لهذه الإمبراطورية اللاتينية أن تظل قائمة في القسطنطينية حتي عام ١٢٦١م، وهي السنة التي نجح فيها البيزنطيين من استعادة القسطنطينية من أيدي اللاتين ، حيث أعتلي عرشها آنذاك ، أسرة جديدة هي أسرة باليولوجوسPaleologus، والتي ظلت تحكم الإمبراطورية حتي سقوط القسطنطينية في يدي الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م/٨٥٧هـ.

بيد أنه، وعلي الرغم من استعادة البيزنطيين للقسطنطينية من أيدي اللاتين ، فإن أمراء الغرب الأوروبي- تساندهم في ذلك البابوية بطبيعة الحال- ظلوا يضعون المخططات الصليبية من أجل إعادة غزوها وإقامة الإمبراطورية اللاتينية فيها مرة أخري ، والعمل علي تحويل أهلها من المذهب الأرثوذوكسي إلي المذهب الكاثوليكي، و كذلك العمل علي إتحاد المذهب الدينية في مذهب واحد ألا وهو المذهب الكاثوليكي الذي تدين به معظم دول الغرب الأوروبي .

علي أيه حال ، فقد نشبت حرب أهلية في بيزنطة عقب وفاة الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالثAndronicus III (١٣٢٨-١٣٤١م) أمتدت سبع سنوات من عام ١٣٤١م وحتي عام ١٣٤٧م، وكانت تلك الحرب بين حنا السادس كانتاكوزينوسJohan VI Cantacuzenus والإمبراطورة آنا دي سافوي Anna de Savoy – أرملة الإمبراطور الراحل أندرونيقوس الثالث- والتي سعت لحماية حقوق ابنها الصغير حنا الخامس باليولوجوسJohan V Paleologus، وقد أنتهت تلك الحرب الأهلية بإغتصاب حنا السادس كانتاكوزينوس للعرش في بيزنطة وظل يحكم من

عام١٣٤٧م و حتي عام ١٣٥٤ م ، وأثناء ذلك كله كان الأتراك العثمانيين يتقدمون في القارة الأوروبية تقدم النار في الهشيم ، حيث نجحوا في احتلال غاليبولي Gallipoli في عام ١٣٥٤م[١]. وفي نهاية الأمر نجح حنا الخامس باليولوجوس من استرداد العرش و إقصاء منافسه عن العرش الإمبراطوري، وتمكن من حكم الإمبراطورية البيزنطية منفردا (١٣٥٤-١٣٩١م) ، ثم حاول – مثله في ذلك مثل أبيه أندرونيقوس الثالث – فور إعتلائه العرش الإمبراطوري حماية الإمبراطورية من خطر الأتراك العثمانيين بالبحث عن نجدة غربية ولاسيما من البابوية[٢].

ولا غرو ، فإن حنا الخامس باليولوجوس كان – علي حد قول المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون– أكثر أباطرة الدولة البيزنطية استعدادا للإرتماء في أحضان البابوية ، خاصة وقد عمدت أمه آنا دي سافوي في أحضان الكنيسة اللاتينية ، وقد فرض عليها زواجها من الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالث أن تغير اسمها ولباسها وطقوس عبادتها ، وعلي الرغم من ذلك كله ، فإن قلبها ظل علي ولائه لوطنها ودينها ، لذا فقد شكلت طفولة أبنها حنا الخامس وتحكمت في الإمبراطورية البيزنطية حتي بعد أن صار إمبراطورا [٣].

وأيما كان الأمر، فقد أرسل الإمبراطور حنا الخامس باليولوجوس مرسوما إمبراطوريا Chrysobull في ١٥ ديسمبر عام ١٣٥٥م [٤] إلي البابا أنوسنت السادس Innocent VI(١٣٥٢-١٣٦٢م) في أفينيون Avignon– كانت البابوية حينذاك قد أنتقلت من روما إلي مدينة أفينيون بفرنسا منذ عام ١٣٠٥م– بشأن التعاون المشترك فيما بينهما ضد الأتراك العثمانيين ، وأيضا بشأن الإتحاد الديني بين الكنائس[٥].

ويعد أن وقع الإمبراطور حنا الخامس علي تلك الوثيقة – المرسوم الإمبراطوي – بالحبر الأرجواني ختمت بخاتمه الإمبراطوري ، ثم كلف عميل إيطالي بإرسالها سرا إلي البابا أنوسنت السادس في أفينيون .وكان أول بند

فيها يحمل يمين الطاعة والولاء للبابا ولخلفائه من بعده ،كما تعهد فيها أيضا بأن يستقبل نوابهم ورسلهم بالإحترام اللائق بمقامهم ، وأن يخصص لهم قصرا لإقامتهم ، وكنيسة لعبادتهم ، وأن يسلم ابنه الثاني مانويلManual – الذي لم يتجاوز السابعة من عمره – كرهينة عند البابا لكي يتعلم في البلاط البابوي[٦] ، بل إنه زاد علي ذلك بأنه تعهد للبابا إذا لم يستطع تنفيذ وعوده، فإنه سوف يتنازل عن العرش لابنه مانويل – تلميذ البابا – فإذا كان مانويل لم يزل صغيرا ، فإن العرش سوف يؤول إلي البابا بوصفه أبيه بالتبني [٧].

وبطبيعة الحال، فإن البابوية لا ترضي بهذا التبني ، وإنما كان مجرد عرض سياسي قدمه الإمبراطور حنا الخامس للبابا ليدل به علي مدي صدق كلامه له حتي يساعده ضد العثمانيين . أما عن أهم المطالب التي كان حنا الخامس يريدها من البابا أنوسنت السادس مقابل تلك التنازلات التي عرضها عليه فهي كما يلي: أن يحصل علي نجدة سريعة تتألف من خمس سفن حربية مع خمسمائة جندي مسلح ، وألف من الرماة المقاتلة، ويتعهد في نظير ذلك ، بأن يفرض علي رجال الدين والشعب البيزنطي الدخول في الكاثوليكية ، بيد أنه لما كان – حنا الخامس – يتوقع مقاومة البيزنطيين له ، فإنه سوف يلجأ إلي الوسيلتين اللتين تؤديان إلي نتيجة حاسمة ومحققة وهما الرشوة والتعليم ، فيسمح لنائب البابا ، أنوسنت السادس ، بأن يوزع الوظائف الكنسية الشاغرة في القسطنطينية علي من يوافق علي الدخول في المذهب الكاثوليكي ، كما أنه– أي حنا الخامس – سوف يفتح ثلاث مدارس لتعليم شباب القسطنطينية اللغة اللاتينية والمذهب الكاثوليكي ، وسوف يتم تسجيل اسم أندرونيقوس الرابع Andronicus IV ابن وولي عهد الإمبراطور حنا الخامس ، كأول تلميذ في تلك المدارس .أما إذا قدر لوسائله من الإقناع أو القوة في نشر المذهب الكاثوليكي ، بالفشل فإنه سوف يعلن للبابا بأنه ليس جديرا بالحكم ، وسوف

ينقل إليه ، كل سلطاته الملكية والأبوية، ويفوض إليه سلطة كاملة في إدارة شئون أسرته وحكومته وزواج ابنه وخليفته [٨].

أما عن رد فعل البابا أنوسنت السادس علي تلك السفارة وهذه العروض التي قدمها له الإمبراطور حنا الخامس ، فإن البابا كان حذرا قليل الثقة من الإمبراطور البيزنطي وكان يعلم في الوقت ذاته ، أنه ليس بإمكانه أن يفرض إرادته علي الأكليروس البيزنطي الأرثوذكسي [٩] .أما بخصوص مانويل ابنه، فإن إجابة البابا لم تحمل أية إشارة بشأنه ، بل إنه قد تجاهل هذا الأمر، وأرسل رداً يشيد بمشاعر الإمبراطور حنا الخامس النبيلة مع رسله[١٠].

وفي الوقت نفسه ، كتب البابا أنوسنت السادس عدة خطابات إلي البطريرك البيزنطي كاليستوس[١١] Callistus، وإلي كبار الأساقفة البيزنطيين من أجل دعوتهم للدخول في المذهب الكاثوليكي ، كما أرسل كذلك رسولين إلي القسطنطينية كان أحدهما هو الراهب الشهير بيير دي توماس Pierre de Thomas [١٢] ليقوما بإقناع الإمبراطور حنا الخامس باليولوجوس بالدخول في المذهب الكاثوليكي ، بيد أن فيليب دي ميزير Philippe de Mezieres(١٣٢٧-١٤٠٥م)، الداعية الكنسي الشهير ، كان قد كتب خطابا إلي البابا أنوسنت السادس ذكر له فيه قائلا: " إن الأنباء عن رغبة الإمبراطور حنا الخامس بإعتناق الكاثوليكية أمرا صعب تصديقه ؛ وذلك لأنه قد تبين و لوقت طويل أن البيزنطيين قد انفصلوا عن الكنيسة الرومانية ، ولأنهم في مفاوضات سابقة كانوا يقومون بخداع الكنيسة الرومانية" [١٣].

وكيفما كان الأمر، فإن البابا أنوسنت السادس ولكي يستفيد من جهود الغرب الأوروبي في حملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين ، فإنه قد قام بدعوة كل من : البندقية ،وجنوة ،والملك القبرسي بطرس الأول لوزينان Pierre I de Lusignan(١٣٥٩-١٣٦٩م)، والأسبتارية في رودس Hospitallers of Rhodes ؛وذلك لاستخدام سفنهم وإرسالها لنجدة القسطنطينية [١٤] ،غير أنه

قد أخفق في جهوده تلك ، حيث لم يلب دعوته أحد من هؤلاء تلبية جدية ، كما أن خطط البابوية – من أجل القيام بحرب صليبية ضد العثمانيين – كانت قد توقفت آنذاك بسبب الحروب التي كانت دائرة بين المجر والبنادقة[١٥].

أما بالنسبة للإمبرطور حنا الخامس باليولوجوس ، فإنه عندما لم ير أية مساعدة آتية من الغرب الأوروبي ، فقد أضطر للكتابة إلي البابا أنوسنت السادس ، مرة أخري ، لكي يخبره بأنه ليس في حالة طيبة تمكنه ن أن يكسب عامة الشعب البيزنطي لسياسته من أجل إتحاد الكنائس ، خاصة مع شكوك البابا أنوسنت السادس فيه فيما يتعلق بعدم قدرته – أي حنا الخامس– علي إقناع شعب القسطنطينية للدخول في المذهب الكاثوليكي [١٦].

وبعد مرور عدة سنوات ، وفي عام ١٣٦١م أرسل البابا أنوسنت السادس رسولا إلي القسطنطينية هو بطرس توماس رئيس أساقفة كريت [١٧] لكي يقوم بعمل أنسب الطرق للإتحاد الديني ، وحقيقة الأمر فإنه كان أنسب الشخصيات للقيام بهذه المهمة ، لاسيما وأنه قد عاش فترة طويلة في الشرق، وعرف مشاكله ، لذا فإنه يعد أكثر شخص مناسب لإقناع البيزنطيين بالمذهب الكاثوليكي [١٨].

وعندما وصل بطرس توماس إلي القسطنطينية ، فإن الإمبراطور حنا الخامس قد أنصت إلي حديثه بأناة ، وأبدي رغبته الشديدة في تقبل المذهب الكاثوليكي ، وطبقا لأقوال فيليب دي ميزير: " فإن حنا الخامس كان مستعدا حتي لخلع بطريرك القسطنطينية كاليستوس ، وهو الذي كان معاندا ورافضا لعملية الإتحاد الديني مع اللاتين ، واستبدال مكانه شخص آخر كاثوليكي[١٩].

وعلي الرغم من هذا الاهتمام الذي أبداه كلا من البابا أنوسنت السادس والإمبراطور حنا الخامس تجاه مسألة الإتحاد الديني بين الكنائس ، فإن المهمة البابوية لم تحقق أي هدفا لها ؛ وذلك لأن البابا كان دائما يعلق مسألة

هذه الحملة من الإستيلاء علي مدينة الإسكندرية عام ١٣٦٥م /٧٦٧هـ، لكن ما يهم البحث من ذلك هو أنه في أثناء الإعداد لتلك الحملة، وفي عام ١٣٦٤م فإن الإمبراطور حنا الخامس كان قد أرسل رسوله الجنوي ميشيل مالاسبينا Michael Malaspina إلي البابا أوربان الخامس ليعرض عليه مشاركته في هذه الحملة لتحرير الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، ثم صد هجوم الأتراك العثمانيين بعد ذلك ، غير أن البابا قد حث حنا الخامس علي الاستمرار في طريق الإتحاد بين الكنائس، لأن ذلك الأمر – من وجهة نظر البابا– أفضل من المشاركة في الحرب الصليبية [٢٣].

ثم قام البابا أوربان الخامس ، بعدئذ بالكتابة إلي الإمبراطور حنا الخامس في شهر فبراير عام ١٣٦٦م يعده بأنه سوف يعمل علي إقناع كل من: أماديوس السادسAmadeoVI كونت سافوي Savoy (١٣٤٣-١٣٨٣م) ،وبطرس الأول لوزينان ملك قبرس ،ولويس الكبير Louise the Great ملك المجر(١٣٤٢- ١٣٨٢م) حتي يأتوا جميع لإنقاذ بيزنطة من هجوم الأتراك العثمانيين ، شريطة أن ينكر – حنا الخامس– الشقاق بين الكنائس ، ويخضع لروما في إخلاص تام (in sinceritae cordium) [٢٤].

ولما رأي الإمبراطور حنا الخامس أن الاتصالات الدبلوماسية مع الكرسي البابوي قد أصبحت عقيمة وغير جدية قرر ، في ربيع عام ١٣٦٦م ، الذهاب إلي بلاد المجر لإقناع ملكها لويس الكبير بالعدول عن رأيه في عدم مساندة البيزنطيين حتي يتحقق الإتحاد الديني بين الكنائس – كما ذكر له البابا– وتقديم المساعدات للبيزنطيين خاصة بعد الهجوم العثماني المستمر علي الأراضي البيزنطية . وقد كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يدخل فيها أمير أو إمبراطور بيزنطي بلدا غريبا ، ليس كقائد علي رأس قواته ، بل كطالب للنجدة[٢٥].

وأيما كان الأمر، فقد رفض لويس الكبير ملك المجر تقديم المساعدة لحنا الخامس ، فما كان من الأخير إلا أن غادر بلاد المجر يجر أذيال الخيبة ورائه ، لكنه ما إن وصل إلي فيدين Vidin التي احتلها المجريين فلم يتمكن من مواصلة رحلته إلي بلاده [٢٦]،حيث لم يسمح له المجريين بالمرور عبر بلادهم ، لذلك فإنه لم يستطع العودة إلا بمساعدة ابن عمه أماديوس السادس كونت سافوي الذي كان في طريقه إلي الشرق - في صيف عام ١٣٦٦م- للانضمام إلي الحملة الصليبية التي كان قد بدأ تنظيمها في الغرب الأوروبي آنذاك بعد غزو الإسكندرية ، لكنه ما إن علم أماديوس السادس كونت سافوي - وهو في طريقه للانضمام إلي تلك الحملة - كذبا بواسطة البنادقة بأن بطرس الأول لوزينان ملك قبرس قد عقد أتفاقية سلام مع المماليك، فما كان منه إلا أن قرر- ربما بالاتفاق مع البابا أوربان الخامس- الذهاب إلي القسطنطينية هو وجنوده مع ابن عمه حنا الخامس باليولوجوس وذلك لإقناع الأخير بالدخول في المذهب الكاثوليكي [٢٧].

وفي أثناء وجود أماديوس السادس كونت سافوي في القسطنطينية ، فإنه قد تناقش في مسألة إتحاد الكنائس مع ابن عمه الإمبراطور حنا الخامس باليولوجوس ، وفي النهاية نجح في إقناعه بالذهاب إلي روما بنفسه[٢٨] لكي يحصل علي مساعدة البابا له ضد أعدائه العثمانيين ، هذا وقد شارك في تلك المناقشات البطريرك اللاتيني للقسطنطينية بول الأزميري Paul of Smyrne الذي كان قد قدم من الغرب الأوروبي مع أماديوس السادس كونت سافوي، حاملا معه خطابات من البابا أوربان الخامس إلي الإمبراطور حنا الخامس باليولوجوس لإقناعه بأمر الإتحاد الديني بين الكنائس [٢٩].

وكيفما كان الأمر ، فسرعان ما ذاع نبأ تلك المناقشات التي تمت بين كلا من أماديوس السادس كونت سافوي و بول الأزميري من ناحية ، وبين

الإمبراطور حنا الخامس باليولوجوس من ناحية أخري حول مسألة إتحاد الكنائس ، وقد انتشر كذلك خبر الاقتراح الذي قدمه أماديوس السادس كونت سافوي إلي ابن عمه حنا الخامس والذي يقضي بذهاب الأخير إلي روما بنفسه للحصول علي مساعدة البابوية له ، هذا وقد قام بطريرك القسطنطينية فيلوثاوس كوكينوسPhilotheus Kokinos[٣٠] بالترويج لكل هذه الأنباء[٣١].

علي أيه حال ، رفض البابا أوربان الخامس الإتفاق الذي توصل إليه بول الأزميري – مع أماديوس السادس كونت سافوي، و حنا الخامس باليولوجوس، وبعض رجال الدين البيزنطي- والرامي إلي ضرورة عقد مجمع ديني عام لحل كل المشاكل الدينية؛ وذلك لأن البابا أوربان الخامس، علي ما يبدو، قد رأي فيه تفوقا لسلطة بول الأزميري علي سلطته كبابا ورأس للكنيسة الكاثوليكية ، لأنه هو وحده الذي له الحق في تحديد مثل هذا المجمع الديني العام من عدمه، وبناء علي ذلك ، فإنه رفض عقده، في الوقت الذي كان فيه رجال الدين والشعب البيزنطي يعارضون بشدة مسألة رحلة الإمبراطور حنا الخامس إلي الغرب الأوروبي ،علي الرغم من أن الأخير كان في أمس الحاجة لهذه الرحلة خاصة بعد ازدياد هجوم الأتراك العثمانيين علي بلاده يوما بعد الآخر[٣٢].

وأيما كان الأمر، فقد قرر أماديوس السادس كونت سافوي مغادرة بيزنطة والعودة إلي الغرب الأوروبي ، وقد رافقه في رحلته إلي هناك رسولين بيزنطيين- ربما لإخبار البابا أوربان الخامس بموافقة ملكهما حنا الخامس لاعتناق الكاثوليكية والذهاب إلي روما لمقابلته هناك- إلا أن ذلك الأمر قد فهم في القسطنطينية علي أن أماديوس السادس والمبعوثان البيزنطيان المرافقان له سوف يجبرون حنا الخامس علي الذهاب إلي إيطاليا، غير أن رحلة حنا

الخامس إلي هناك كانت قد تأجلت إلي حين، ثم غادر أماديوس السادس وبرفقته الرسولين البيزنطيين أراضي بيزنطة في ٤ يونيه عام ١٣٦٧م(٣٣).

أما البابا أوربان الخامس فقد عمل من جانبه علي إقناع رجال الدين والشعب البيزنطي بإعتناق الكاثوليكية ، وفي هذا الخصوص فقد قام بارسال عدة خطابات إلي أبناء الإمبراطور حنا الخامس الثلاثة وإلي زوجته الإمبراطورة هيلينا Helena- ابنة حنا السادس كانتاكوزينوس-، وإلي كانتاكوزينوس نفسه، والذي كان وقتذاك، قد اعتكف في أحد الأديرة ، أما الخطاب الأخير الذي أرسله البابا فقد كان موجها لبطريرك القسطنطينية فيلوثاوس أحد المناوئين لعملية الإتحاد الديني مع اللاتين(٣٤).

علي أيه حال ، ففي شهر أبريل عام ١٣٦٩م غادر حنا الخامس القسطنطينية متجها إلي روما ، فدخلها في ١٨ أكتوبر عام ١٣٦٩م وسط احتفال كبير(٣٥)، وتقابل فيها مع البابا أوربان الخامس الذي كان قد جاء بنفسه هو الآخر إليها قادما من أفينيون(٣٦).

وقد قدم الإمبراطور حنا الخامس في رحلته إلي روما - وقد أوت ضائقته بغروره - فروض الطاعة والولاء للبابا. وليس ذلك فحسب بل إن الإمبراطور البيزنطي الأرثوذكسي تخلي عن مذهبه وأعلن أنه كاثوليكي المذهب ورغم ذلك كله فإن ما ذهب من أجله وهو دفع البابا إلي الدعوة لحملة صليبية لم يتم(٣٧).

أما عن رد فعل شعب القسطنطينية وبطاركتها من ذهاب حنا الخامس إلي روما لكي يعلن ارتداده عن المذهب الأرثونكسي وتقبل المذهب الكاثوليكي أمام البابا أوربان الخامس من أجل أن يساعده الأخير في صد هجوم الأتراك العثمانيين ، فيمكن القول أن الشعب البيزنطي وعلي رأسهم البطريرك فيلوثاوس قد أستاء من ذلك الأمر وأعلن عدم اعترافه بسلطة البابا في روما

علي الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية ، فضلا عن ذلك أرسل فيلوثاوس رسائل كثيرة ليس فقط إلي سكان الإمبراطورية البيزنطية، بل أيضا وإلي كل المسيحيين الأرثوذكس وراء بيزنطة في سوريا ومصر ، والصرب والبلغار، وروسيا Russia وذلك لحثهم علي الثبات علي المذهب الأرثوذكسي ، ولتنظيم حملة أرثوذكسية توقف تقدم الأتراك العثمانيين وتشل مفعول الإتحاد الديني الذي أعلنه الإمبراطور حنا الخامس ، بيد أن شيئا من ذلك القبيل لم يتم(٣٨).

ومهما يكن الأمر ، فبعد أن أعلن حنا الخامس اعترافه بالمذهب الكاثوليكي وسيادة البابا أوربان الخامس علي كل العالم المسيحي ، فما كان من الأخير إلا أن قام وأصدر منشورا بابويا في نهاية عام١٣٦٩م إلي كل أمراء وملوك الغرب الأوروبي يخبرهم فيه بتحول حنا الخامس إلي الكاثوليكية، ويطلب منهم مساعدته ، بيد أنهم كانوا حينئذ في شغل شاغل بمشاكلهم(٣٩). فلم يلب أحدا منهم نداء البابا، لذلك قام الأخير بحث حنا الخامس بالتفاوض مع المغامر الإنجليزي جون هوكوودJohan Hawkood أحد المرتزقة الإنجليز والذي كان يقوم بأعمال السلب والنهب في إيطاليا مع فرقة من المغامرين أطلقوا علي أنفسهم اسم "الأخوة البيضاء" The White Company؛ وذلك لكي يساعده جون هوكوود في صد هجوم الأتراك العثمانيين علي بيزنطة ، بيد أن جون هوكوود وقواته ، أو بالأحري جرأته ، لم تكن تكفي لصد هجوم الأتراك العثمانيين (٤٠).

وعندما رأي حنا الخامس عدم جدوى من مساعدة البابوية له، فإنه قد قرر مغادرة روما والعودة إلي بيزنطة ، فغادرها في مارس عام ١٣٧٠م مصطحبا معه أربع سفن حربية ، لكن يبدو أن طريق عودته كان محفوفا بالمخاطر(٤١) ؛ ذلك لأنه ما إن وصل إلي البندقية في أوائل عام ١٣٧٠م حتي قام البنادقة باحتجازه رهينة عندهم إيفاءا لدين لهم عليه ، لكن تمكن ابنه

مقويل باليولوجوس في النهاية من أن يفك أسره ، بعد أن باع أو رهن كل ما يملك، وأبحر إلي البندقية وأنقذه من الحبس [٤٢].

وأيما كان الأمر ، فقد عاد حنا الخامس إلي القسطنطينية في عام ١٣٧١م صفر اليدين دون أن ينجز أي شئ ، بل إنه عاد أفقر مما رحل ، فقد أرتد عن مذهبه الأرثوذكسي مقابل وعودا وهمية بالمساعدة من البابا ، كما أنه لم يستطع أن يقنع شعبه بقبول مسألة إتحاد الكنائس ،لاسيما بعدما أنكره شعبه ؛ لأنه كان في نظرهم قد حنث بعهده للمذهب الأرثوذكسي باعتناقه للكاثوليكية [٤٣].

علي أيه حال ، فقد تولي كرسي البابوية في مدينة أفينيون آنذاك بابا جديد هو البابا جريجوري الحادي عشر Gregory XI (١٣٧٠-١٣٧٨م)[٤٤] الذي لم يأل جهدا من أجل العمل علي إقناع البيزنطيين بالدخول في المذهب الكاثوليكي، حيث أنه وفي شهر أكتوبر عام ١٣٧٣م كان قد دعا إلي عقد مجلس ديني ببلاد اليونان من أجل التخطيط للقيام بحملة صليبية مشتركة ضد الأتراك العثمانيين ، وكان من بين الذين دعاهم إليه كلا من : بول الأزميري، والبنادقة ، والجنوية ، والأسبتارية في رودس ، والنائب البابوي في بلاد اليونان ، وملوك كلا من: قبرص ، والمجر ، وصقلية،هذا فضلا عن الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس باليولوجوس[٤٥].

وعلي الرغم من كل ذلك الجهد الذي قام به البابا جريجوري الحادي عشر، فإن شيئا لم يتم ، حيث أن لويس الكبير ملك المجر والذي دعي للاشتراك في هذا المؤتمر[٤٦] وكان شخصا أسلاميا فيه كان قد انشغل بأموره الخاصة حيث دخل في صدام حول العرش في بلاده، في الوقت الذي دخل فيه البنادقة، والجنوية في صدم معا[٤٧].ثم أوفد الإمبراطور حنا الخامس ، بعد ذلك، حنا لاسكارس كالوفيروس Johan Lascaris Kalopheros إلي

أفينيون- مقر البابوية حينذاك- ، وباريس Paris، والمجر يستغيث ، فلم يلق إلا وعودا غامضة . وفي خريف عام ١٣٧٤م أرسل البابا جريجوري الحادي عشر من قبله أربعة رسل إلي القسطنطينية من أجل فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس حول مسألة إتحاد الكنائس ، ولكي يأكدوا له، في الوقت عينه، بأن الدفاع عن القسطنطينية يتيسر بسهولة إن هو - أي حنا الخامس- نجح في ضم الكنيسة الأرثوذكسية- أي البيزنطية- إلي الكنيسة اللاتينية، لكن يبدو أن حنا الخامس قد يأس من فكرة إتحاد الكنائس ، فاضطر في النهاية إلي التفاوض في أمر الصلح مع السلطان العثماني مراد الأول Murad(٧٦٣-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م) ودخل في طاعته عام ١٣٧٤م ، وقد ترتب علي ذلك قيام ابنه أندرونيقوس الرابع Andronicus IV بالثورة عليه وزج به في السجن، وتولي هو السلطة بدلا منه وظل يحكم بيزنطة من عام ١٣٧٦م وحتي عام ١٣٧٩م[٤٨].

وكيفما كان الأمر، فإن البابا جريجوري الحادي عشر ربما لم يفقد الأمل في إمكانية العمل علي التوحيد بين الكنائس، فأرسل خطابا إلي الإمبراطور حنا الخامس مؤرخ بمدينة أفينيون في ٢٨ يناير عام ١٣٧٥م يخبره فيه بأن يعاود مراسلة البابوية ، مع توضيح الأسباب التي دفعته للإعراض عن التحالف معها ضد أعدائه العثمانيين ، ويحذره البابا ، في الوقت نفسه، من شقاق البيزنطيين، وكذلك من عودة مهاجمة الأتراك العثمانيين لبلاده مرة أخري[٤٩]

ولم يكتف البابا جريجوري الحادي عشر بذلك، بل إنه قام وأرسل في ٢٨ يناير عام ١٣٧٥م خطابا آخر إلي مانويل باليولوجوس - ابن الإمبراطور حنا الخامس- لعله يقنع أباه بالعودة للتحالف مع البابوية ، ويترك

شقاق البيزنطيين، كما حثه البابا أيضا ، بعدم الانضمام إلي شقاق البيزنطيين، وعدم الوقوف بجانب الأتراك العثمانيين [٥٠].

علاوة علي ذلك، فقد حاول البابا جريجوري الحادي عشر في عامي ١٣٧٥م و١٣٧٦م أن يستنهض الهمم في أوروبا ضد العثمانيين فلما وجد عدم جدوي من إمكانية توحيد الكنائس والتحالف مع البيزنطيين لصد هجوم الأتراك العثمانيين[٥١]، فإنه – أي البابا- قد خطط لإرسال حملة بحرية من الأسبتارية لكي تعارض الأتراك العثمانيين في بحر إيجة، وقد تمكن بالفعل من تجهيزها لكنها انحرفت عن مسارها إلي البحر الأورياتي ولقيت فشلا ذريعا[٥٢].

خلاصة القول، فقد تمكن حنا الخامس بالبولوجوس في النهاية من استرداد عرشه بفضل نجدة اسعفه بها الأتراك العثمانيين والبنادقة، ولقد ظلت إمبراطوريته لسنوات قلائل هشة العود، وما كان بقاؤها إلا بفضل الترابط الضعيف بين أفراد أسرته ، فقد تولى حنا الخامس الحكم كإمبراطور في القسطنطينية من عام ١٣٧٦م وحتى عام ١٣٩١م ، كما تولي ابنه أندرونيقوس الرابع الحكم في تراقيا، أو ولاه الرابع ثيودور Theodore فقد صار واليا علي إمارة ميسترا Mistra بالمورة – البلوبونيز-. علي أنهم جميعا كانوا تحت رحمة السلطان العثماني الذي أستولي علي تسالونيك Thessalonique سنة ١٣٨٧م، ثم ما لبث أن أحرز نصره التالي في المعركة الحاسمة كوسوفو Kosovoعام ١٣٨٩م. وحدث في سنة ١٣٩٠م أن اغتصب العرش من حنا الخامس طرده حنا السابع JohanVII– ابن أندرونيقوس الرابع – فجاء حينئذ ابنه الخالص مانويل مرة أخري لإنقاذه فلم يرضي هذا العمل السلطان العثماني بل أنه سخط علي مانويل ، أما حنا الخامس فقد حبس نفسه في قصره وظل ملازمه حتي وافاه أجله في فبراير عام ١٣٩١م[٥٣].

الخاتمة:

يتجلي من استعراض وتحليل المادة العلمية الواردة خلال ثنايا البحث النتائج التالية :-

لقد فشلت كل المحاولات التي قام بها البابوات في أفينيون للإتحاد بين الكنائس، وفي حقيقة الأمر فإن فشل تلك المحاولات لم يكمن فقط في ضعف بابوات أفينيون، بل أيضا في ضعف الكنيسة البيزنطية التي كان ينقصها وجود سلطة دينية قوية قادرة علي فرض إرادتها علي كل الشعب المؤمن بها.

لما أحس الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس بالخطر العثماني يزحف علي القسطنطينية فأراد اشعال حرب صليبية ضد الأتراك، ومن أجل ذلك اتجه الإمبراطور إلي البابا أوربان الخامس في روما - بعدما ترك البابا أوربان الخامس مدينة أفينيون وعاد إلي روما عام ١٣٦٧م- ليقدم فروض الولاء والطاعة وليس ذلك فحسب بل أن الإمبراطور البيزنطي الأرثوذكسي تخلي عن مذهبه وأعلن أنه كاثوليكي المذهب . ورغم ذلك كله فإن ما ذهب من أجله وهو دفع البابا إلي الدعوة لحملة صليبية توقف الزحف العثماني عن القسطنطينية لم يتم.

جاء تحول الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس من الأرثوذكسية إلي الكاثوليكية في غير صالحه، فقد قاوم هذا الأتجاه البطريرك البيزنطي فيلوثاوس ، وأعلن عدم اعترافه بسلطة البابوية في روما علي الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية ، وشاركه في ذلك الصرب والبلغار. وربما يمكن القول أن إعلان الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس بأنه أصبح كاثوليكيا كان من قبل العمل السياسي وليس عملا دينيا إلا أنه كان له أثر كبير علي الجبهة الداخلية بصفة عامة، والأوساط الدينية بصفة خاصة.

الهوامش:

(1)Théophile Lavallée:Histoire de l' empire Ottoman, Paris,1855, P.137.,Cf: Cambridge Medieval History., Vol.IV, Cambridge,1927, P. 617.,Cf: Lemerle(P.): Histoire de Byzance,Paris,1956,P.122.

(2)Pears(E.LL.B):The destruction of the Greek empire and the story of capture of Constantinople by the Turks, New York,1903,P.86.

(٣) جيبون (إدوارد):اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج٣، ترجمة/محمد سليم سالم ، مراجعة/محمد علي أبو درة ، ط٢، القاهرة١٩٩٧م، ص١٩٦.

(٤) ذكر بيرس Pears أن ذلك المرسوم كان في عام ١٣٥٦م وليس في عام ١٣٥٥م.
Cf: Pears:Op.Cit.,P.89.

(5)Raynaldi(B.): Annales ecclesiastici, T. 23, Paris, 1871, ad ann.1355, Nos. 34-35.; Cf: Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.;Cf:Brehier(L.):Vie et mort de Byzance,Paris,1948,P.453.,Cf: Housley (N): The Avignon Papacy and the Crusades (1305-1378) , London ,1986, P. 37.

وأنظر أيضا : أسد رستم :الروم ،ج٢، بيروت١٩٥٦،ص٢٤٦.وأيضا: هسي(ج.م):العالم البيزنطي، ترجمة/رأفت عبد الحميد،القاهرة١٩٩٧م،ص١١٨.وكذلك: دونالد نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق/أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، القاهرة،١٩٤٧م، ص١١٢.

(٦) جيبون،مرجع سابق،ج٣،ص١٩٦.

(7)Pears:Op.Cit.,P.90.; Cf: Camb Med. Hist., Vol.IV, P.617.; Cf: Brehier: Op.Cit.,P.453.;Also:Ostrogorsky(G.):History of the Byzantine state, trans. by: Joan Hussey, New Jersy,1957,P.473.

أنظر أيضا: زبيدة محمد عطا: الترك في العصور الوسطي، القاهرة، ١٩٧٦م،ص١٦٣.

(٨) جيبون:مرجع سابق،ج٣،ص١٩٦.أنظر أيضا:

Setton(K.M.): A history of the Crusades,Vol.3,Wisconsin,1975,P.70.

(٩) أحمد رستم : مرجع سابق،ج٢،ص٢٤٦.

Cf:Halecki(O.):Un empereur de Byzance `a Rome, Varsovie, 1930, Pp.31-32.

(10)Ostrogorsky: Op.Cit.,P.474.

(١١) تولي كاليستوس بطريركية القسطنطينية مرتين الأولي من عام ١٣٥٠م حتي عام ١٣٥٣، والثانية من عام ١٣٥٥م حتي عام ١٣٦٣م وهو أحد الرهبان من أتباع فكرة الزهد الصامت Hesychast الذين عاشوا علي جبل آثوس ،وكان كاليستوس تلميذا لجريجوري السيناتي Gregory of Sinai(توفي عام ١٣٤٠م) وصديقا لجريجوري بالاماس Gregory Palams الذي وقف في مجمع القسطنطينية يدافع عن آرائه اللاهوتية ،وهو المجمع الذي دعا إليه الإمبراطور كانتاكوزينوس الذي كان كاليستوس من المعجبين به.وكان كانتاكوزينوس هو الذي زكي كاليستوس وساعده في يونيه عام ١٣٥٠م ليكون بطريركا ، ومع ذلك فإن كاليستوس هذا رفض أن يضع التاج علي رأس ماثيو كانتاكوزينوس- ابن حنا السادس كانتاكوزينوس- وكره أن يكون تتويجه إمبراطورا على يده سنة ١٣٥٣م ،ولما تعقدت الأمور أرتد كاليستوس إلي أحد الأديرة وتولي البطريركية فيلوثاوس ،لكن علي الرغم من أنه لما أصبح حنا الخامس إمبراطورا سنة ١٣٥٤م أعيد كاليستوس إلي الكرسي البطريركي.ولقد كان كاليستوس شديد المعارضة لفكرة الإتحاد مع الكنيسة الرومانية ،ومات سنة ١٣٦٣م في أثناء رحلة كان يقوم بها إلي الصرب وكان القصد من ورائه طلب المساعدة من الصرب لينجدون بها الإمبراطور حنا الخامس ويقفون إلي جانبه ضد العثمانيين.أنظر :دونالد نيكول:مرجع سابق،ص٤٣.

(12)Jorga (N.): Philippe de Mezieres (1327-1405), Paris, 1896, Pp.137-138.;Cf: Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.

(13)Setton:Op.Cit.,V.3,P.70.

(14)Pears:Op.Cit.,P.90.

(15)Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.

(16)Jorga: Op.Cit.,P.138.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P.70.

(١٧) بطرس توماس رئيس أساقفة كريت هذا ليس هو بطرس توماس البطريرك الأسمي للقسطنطينية، والذي توفي في عام ١٣٩٦م.أنظر: Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P.71.

(18)Setton:Ibid.,P.71.

(19)Philip of Mezieres:Vita S. Petri Thomasii,Paris,1863,P.616.

(20)Setton:Op.Cit.,V.3,P.71.

(21)Gregoras(N.):Historiae Byzantinae, in,Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Vol.III, Bonnae,1955,P.537.

(22)Cydones(D.):De Subsidio Latinorum,in, Patrologia Graeca, T.154, Belgium,Pp.961-1008.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P.72.

(23)Jorga: Op.Cit.,P.205.;Cf:Viller(M.):La question de l'union des 'eglises entre Grecs et Latins depuis le concile de Lyon jusqu`a celui de Florance (1274-1438) , dans, Revue Historique Ecclesiastique, T.XVII, Louvain, 1921,P.277.,Cf: Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.

(24)Raynaldi: ad ann.1366, No. 2.; Cf: Pears:Op.Cit.,P.91.

(25)Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.;Cf: Halecki: Op.Cit.,Pp.129-130.;Cf: Lemerle: Op.Cit.,P.122.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,Pp.75-76.

وأنظر أيضا: هسي: مرجع سابق،ص ١٨٩.؛ وأيضا: دونالد نيكول: مرجع سابق،ص ١١٢.

(26)Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.;Cf: Ostrogorsky: Op.Cit.,P.479.

(27)Atiya (A.S): The Crusades in the later Middle Ages London, 1938, P.380.;Cf: Brehier: Op.Cit.,P.454.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P.76.

(٢٨)عادت البابوية من مدينة أفينيون إلي روما علي عهد البابا أوربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) عام ١٣٦٧م وظلت في روما ثلاث سنوات حتي عام ١٣٧٠م ، ثم عاد البابا أوربان الخامس إلي أفينيون مرة أخري وتوفي بها (الباحث).

(29)Laurent(V.):Nicephore Gregoras , dans, Dictionnaire de Theologie Catholique,T.XI , Part.1 , Paris ,1931,P.459.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P. 76.

(٣٠) كان فيلوثاوس كوكينوس بطريرك للقسطنطينية بين عامي ١٣٥٣م و١٣٥٤م، ثم من عام ١٣٦٤م حتي عم ١٣٧٦م.وقد كان انتخابه بطريركا في نوفمبر عام ١٣٥٣م، وتم علي يده تتويج متي كانتاكوزينوس إمبراطورا في نوفمبر عام ١٣٥٤م، ثم صرف عما بيده بعدما جري من تغيير الحكم في تلك السنة، ولكنه أعيد في عام ١٣٦٤م عقب موت البطريرك كاليستوس ، وعلي الرغم من أن فيلوثاوس كان راهبا من أتباع فكرة الزهد الصامت وتلميذا لجريجوري بالاماس ، إلا أنه كان عظيم الإعتزاز بمكانة وظيفته ، ومن ثم عمل علي تشجيع الفكرة الداعية إلي قيام تحالف أرثوذكسي بين البيزنطيين والسلاف ضد الأتراك العثمانيين. وكان فيلوثاوس غزير التأليف لاسيما فيما يتعلق بسير القديسين.أنظر: دونالد نيكول: مرجع سابق، ص ٤١.

(31)Setton:Op.Cit.,V.3,P. 77.

(32)Setton:Loc.Cit.

(33)Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.;Cf:Atiya: Op.Cit.,P.396.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P. 78.

(34)Camb. Med. Hist., Vol.IV, P.617.

(35)Halecki: Op.Cit.,P.205.;Cf: Brehier: Op.Cit.,P.454.; Cf:Vasiliev (A.A.): A history of the Byzantine Empire(324-1453),Madison,1952, P.671.;Cf: Lemerle: Op.Cit.,P.122.;Also:Ostrogorsky: Op.Cit.,P.480.

(٣٦) جيبون: مرجع سابق،ج٣،ص ١٩٧.

(37)Raynaldi: ad ann.1369, No. 11.; Cf:Pears:Op.Cit., P.92.; Cf: Halecki: Op.Cit.,P.205.;Cf: Lemerle: Op.Cit.,P.122.;Also: Ostrogorsky Op.Cit., P.480.

(38)Brehier: Op.Cit.,P.456.;Cf:Vasiliev: Op.Cit.,P.672.

(39)Raynaldi: ad ann.1369, No.4.; Cf:Lavisse (E.)et Rambaud (A.): Histoire Générale, T. 3, Paris, 1894,P.316.;Cf:Mourret (F.): Histoire génèrale de L'eglise, Paris, 1920,P.102.;Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P. 78.

(٤٠) جيبون: مرجع سابق ،ج٣، ص ١٩٧.أنظر أيضا:

Cf:Pears:Op.Cit.,P.92.;Cf:Pirenne (H.): A history of Europe, New York, 1971,P.408.;Cf: Bell (Mary. I. M.): A short history of the Papacy, London, 1981, P.225.

(41)Baluze (S.):Vitae Paparum Avenionensium, T. 1, ed. Mollat (G.), Paris, 1914,P.392.;Cf:Michaud (M.): Histoire des croisades, T. 3, Paris, 1867,P.377.

(42)Léonertz (RJ.):Jean V Paleologus`a Venise (1370-1371), dans,Revue Etudes Byzantine,T.XV,Paris,1957,Pp.217-231.

(43)Théophile Lavallée: Op.Cit.,P.145.;Cf: Michaud: Op.Cit., T.3, P.377.; Cf: Setton:Op.Cit.,V.3,P. 79.

(٤٤)عاد البابا أوربان الخامس من روما إلي أفينيون عام ١٣٧٠م، ثم لم يلبث أن توفي بها عام ١٣٧٠م، فتم انتخاب البابا جريجوري الحادي عشر خلفا له فظل في أفينيون حتي عام ١٣٧٧م، ثم رحل إلي روما وتوفي بها عام ١٣٧٨م.(الباحث)

(45) Halecki: Op.Cit.,P.248.;Cf: Brehier: Op.Cit.,P.458.;Cf:Housley: Op.Cit.,P.47.

(٤٦) نفي "هاليكاي" تماما عقد هذا المجلس الديني وذكر أن البابا لم يدع إليه.أنظر:

Cf:Halecki: Op.Cit.,Pp.289-290.

(47)Setton:Op.Cit.,V.3,Pp. 79 -80.;Cf: Housley: Op.Cit.,P.47.

(48)Halecki: Op.Cit.,P.248.;Cf: Brehier: Op.Cit.,Pp.458-459.

(49)Mollat(G.):Lettres secrétes et curials du pape Gregoire XI (1370-1378), T.2 , Paris , 1963, No.3117, P.99.

(50)Mollat:Lettres secrétes.,No.3118,P.99.; Cf: Housley: Op.Cit., P.47.

(51)Michaud: Op.Cit.,T.3,P.377.;Cf: Pears:Op.Cit.,P.93.;Cf: Brehier: Op.Cit.,P.459.

(52)Luttrel (A.):Intrigue,Schisme,and violence among the Hospitales of Rhodes (1377-1380) , in, Speculum,Vol.41,London,1980,P.30.

(٥٣) دونالد نيكول : مرجع سابق ، ص ص ١١٢-١١٣.